قضايا

بعد الحرب الروسية على أوكرانيا، ثمّة خوف كبير من تمدّد الحرب إلى دول الجوار، ومنها مولدافيا المحاذية لأوكرانيا. ما هي خيارات مولدافيا لمواجهة روسيا؟ وما موقفها مما يجرى في أوكرانيا اليوم؟ هنا الجزء الثاني والأخير من قراءة موسّعة للصراع الدائر الآن واحتمالاته وجذوره التاريخية

معادلة صفرية مطلقة في سلبيتها

أوكرانيا ومولدافيا والتاريخ [2/2]

محمد الشرقاوي

لاجئون أوكرانيون في مدينة بالانكا في مولدافيا في 9/ 3/ 2022 (Getty)

في الجزء الأول من هذا المقال، تحدّث الكاتب عن التشابك بين أوكرانيا ومولدافيا واحتمال تمدّد الحرب إلى دول أخرى، وعن معضلة الحرب غير المتوازية وإلى إمكانية تبني تركة الحرب الباردة في استيعاب تعقيدات الحرب وأحداثها اليومية ومآلها في المستقبل أم أننا بحاجة إلى مقاربة جديدة إضافة إلى قراءة في موقف الرئيس الروسي فلاديمير بوتين مما يجري.

موقف بايدن

طلب الرئيس بايدن من أعضاء الكونغرس إقرار ميزانية ثلاثين مليار دولار لاحتواء روسيا سيجرى إنفاق عشرين مليار منها لتسليح أوكرانيا. في المقابل، قرّرت موسكو تجميد حوارها بشأن الاستقرار الاستراتيجي مع واشنطن رسمياً. وقال وزير الخارجية الروسي، سيرغي لافروف، إن موسكو «لا تعتبر نفسها في حالة حرب مع حلف شمال الأطلسي، لكن الحلف يفعل ذلك»، وإن على الولايات المتحدة ودول الحلف الأخرى «التوقف عن ضخّ الأسلحة إلى أوكرانيا إذا سعت بالفعل لإنهاء الصراع، لكنها تبذل الآن كل ما في وسعها لإطالة أمده». وأضاف أن على مولدافيا أن «تقلق بشأن مستقبلها لأنه يتم جرّها إلى الحلف». نـدّد الرئيس بايدن في البيت الأبيض يوم الغزو الروسي لأوكرانيا، بما اعتبره «هجوماً مع سبق الإصرار». وقال إن «بوتين ظل يخطط له منذ شهور، وأنه نشر أكثر من 175000 جندي ومعدّات عسكرية في مواقع على طول الحدود الأوكرانية، وأيضاً إمدادات الدم، وشيّد مستشفى ميدانياً، مما ينبئ بكل ما تحتاج لمعرفته حول نواياه طوال الوقت. لقد رفض كل الجهود بحسن النية التي بذلتها الولايات المتحدة وحلفاؤنا وشركاؤنا بشأن مخاوفنا الأمنية المتبادلة من خلال الحوار وتجنب الصراع غير الضروري وتجنب المعاناة الإنسانية.»

ولكن، لم يخض بايدن في طبيعة الردّ العسكري الذي اعتقد كثيرون أنّه قيد التحضير، بقدر ما دفع بلغة العقوبات، وأهمية قيام تحالف دولي ضد روسيا. وشدّد على أن الغرب صمّم تلك العقوبات عن قصد لتعميق التأثير طويل المدى على روسيا، وتقليل التأثير على الولايات المتحدة وحلفائها، وأن «الولايات المتحدة لا تفعل ذلك بمفردها. كنا لعدة أشهر نبني تحالفاً من الشركاء الذين يمثلون أكثر من نصف الاقتصاد العالمي. سبعة وعشرون عضواً في الاتحاد الأوروبي، بمن فيهم فرنسا وألمانيا وإيطاليا - وكذلك المملكة المتحدة وكندا واليابان وأستراليا ونيوزيلندا ودول أخرى عديدة - لتضخيم التأثير المشترك للرد على روسيا». حوّل بايدن الأنظار من المعارك الناشبة في أوكرانيا إلى أن «الولايات المتحدة ستدافع عن كل شبر من أراضي الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي بقوة أميركية كاملة». وقال إنّ «الخبر السار هو أن الحلف أكثر اتحاداً وتصميماً من أي وقت مضى». وبعد مرور أكثر من شهر، قال بايدن خلال زيارة القلعة الملكية في وارسو إن الحرب في أوكرانيا أصبحت «فشلاً استراتيجياً لروسيا»، وإن سياسة الكرملين «خنقت الديمقراطية وسعت إلى القيام بذلك أيضاً في أماكن أخرى». واعتبر المقاومة الأوكرانية جزءاً من «معركة عظيمة من أجل الحرية»، فيما دعا العالم إلى الاستعداد «لمعركة طويلة». ووجّه حديثه إلى الشعب الروسي، قائلاً «أرفض تصديق فكرة أنكم تقبلون قتل أطفال وأجداد أبرياء أو أنكم تقبلون قصفاً روسياً للمستشفيات والمدارس».

وأعلن الأمين العام لحلف شمال الأطلسي، ينس ستولتنبرغ، في مقابلة مع صحيفة التلغراف البريطانية، أن القادة العسكريين للحلف ينكبّون على وضع خطط لتحويل وجود الحلف إلى قوة قادرة على حدوده الشرقية تكون قادرة على مواجهة جيش غاز محتمل. ووصف وجودَ الحلف في شرقّ أوروبا بأنه مجرّد قوة صغيرة نسبياً تهدف إلى التدليل الرمزي على التزام الحلف بالدفاع عن نفسه ضد أي هجوم روسي محتمل. بيد أن حرب روسيا ضد أوكرانيا ستغير ذلك. وقال إنه «بغضّ النظر عن موعد وكيفية انتهاء الحرب، فقد خلّفت فعلياً عواقب طويلة المدى على أمننا. ويحتاج حلف إلى أن يتكيف مع هذا الواقع الجديد، وهذا بالضبط ما نقوم به حالياً».

موقف الصين

الضّلع الثالث في هذه اللحظة المفصلية بين أقطاب الاستراتيجية الدولية حساب الصين التي تواصل انتقاد الغرب، لإثارة هذا الصراع مع الالتزام بشكل عام بالعقوبات، وتقديم مواد ودعم محدود لروسيا، كما تلاحظ ماريا ريبنيكوفا، وهي مختصة في السياسة الصينية في جامعة ولاية جورجيا الأميركية. وتضيف أن الصين تواصل، من الناحية الأيديولوجية، الدعوة إلى التشكيك في الهيمنة الغربية (وخصوصاً الأميركية) وتقليلها. ومن أجل مواجهة الولايات المتحدة على المدى الطويل، من المرجّح أن تتجنّب الصين المواجهة المباشرة والعزلة.

يقول المتحدث باسم وزارة الخارجية الصينية، وانغ وينبين، إنه «لا يوجد سقف للتعاون بين الصين وروسيا، ولا سقف لنا للسعي من أجل السلام، ولا سقف لنا لحماية الأمن، ولا سقف لنا لمعارضة الهيمنة». وشدّد على أن موقف الصين يقوم على أن «الحوار والتفاوض هو السبيل الوحيد الصحيح لحل الأزمة الأوكرانية». وحذر من «صبّ الزيت على النار» (عبارة كثيراً ما يستخدمها المسؤولون الصينيون في انتقاد العقوبات الغربية). يكتب الباحث في معهد موسكو للعلاقات الدولية إيغور دينيسوف، في مقالة نشرها في مجلة The Diplomat، أنّه «على الرغم من العلاقات العسكرية المتنامية بين روسيا والصين باستمرار، فإنهما ليستا حليفتين. وقد يكون من المنطقي أن يجرى التنسيق على مستوى عالٍ بشأن التحرّكات العسكرية الروسية المقبلة إذا كانت الصين، بطريقةٍ ما، تساهم في العملية جنباً إلى جنب مع الجيش الروسي. ومن الواضح أن أي خيار من قبيل هذه العمليات المشتركة غير مطروح على الطاولة. ويحتفظ الطرفان اللذان يقدران ثقتهم المتبادلة، بدرجة عالية من الاستقلال الاستراتيجي».

الملاحظ أيضاً أن التقارب بين بوتين وشي قبل الألعاب الأولمبية الشتوية وخلالها يجسّد عقيدة بريجنيف في ثوب جديد، وأعلنا، في البيان المشترك في 4 فبراير/ شباط الماضي، أن «العلاقات الجديدة بين روسيا والصين تتفوّق على التحالفات السياسية والعسكرية في حقبة الحرب الباردة. فلا حدود للصداقة بين الدولتين، ولا توجد مجالات «محظورة» للتعاون...». هذا إعلان واضح عن تحالف جديد يهدف إلى تجاوز الحرب الباردة، جزئياً، عن طريق إنشاء شراكة تؤدّي إلى نتيجة مختلفة تماماً هذه المرة». واضاف البيان أن «روسيا والصين تقفان ضد محاولات القوى الخارجية لتقويض الأمن والاستقرار في المناطق المتاخمة المشتركة بينهما، وتعتزمان مواجهة تدخل القوى الخارجية في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة

> لدى بوتين وبعض من رجاله قناعة بأحقية روسيا في الوصاية على جميع الدول التي خرجت من عباءة الحقبة السوفييتية

> من أجل مواجهة الولايات المتحدة على المدى الطويل، من المرجّح أن تتجنّب الصين المواجهة المباشرة والعزلة

تحت أي ذريعة، وتعارض الثورات بشعارات الألوان، وستزيدان في مستوى التعاون في عدة مجالات».

قبل عامين، قال المؤرخ البريطاني والأستاذ في جامعة هارفارد، نيل فيرغسون، إنّ الصّين أحدُ اللاعبين الرئيسيين في الحرب الباردة، وإنّ قواها «اقتصادية وليست عسكرية»، فيما غدا دور روسيا «صغيراً جداً». وضرب مقارنة بين الفترة الراهنة وفترة الخمسينيات، وتوصّل إلى أن الأدوار انعكست، وأن الصين هي الآن العملاق، وروسيا هي الصاحب الصغير متوسّط القوة. فرق آخر أيضاً في نظر فيرغسون وهو أن «الصين في عهد شي لا تزال وفية لمذهب ماركس ولينين، فيما عادت روسيا تحت حكم بوتين إلى النزعة القيصرية». وخلص إلى القول إنّ هذه الحرب الباردة تختلف عن الحرب الباردة الأصلية، لأن الولايات المتحدة «متشابكة جداً مع الصين» إلى الحد الذي يكون فيه «الانفصال» كما جادل الآخرون «وهماً» ولأن «حلفاء أميركا التقليديين أقل حرصاً على ذلك. هم ينحازون لواشنطن وضد بكين»، وأن الحرب الباردة الجديدة «تحوّلت من التجارة إلى التكنولوجيا»، عندما وقعت كل من الولايات المتحدة والصين على الصيغة الأولى من الاتفاق التجاري بينهما.

هل يلتقي الخطان المتوازيان؟

كيف يمكن تشريح الحرب الرّوسية على أوكرانيا وخصائصها بين موجة التصعيد الراهن وخفض التصعيد المنشود من أوكرانيا ودول الغرب؟ هي صراعٌ غيرُ متوازٍ على أكثر من مستوى. وينطوي عدم التوازي على بنيةٍ توجد في جل العلاقات السياسية والاجتماعية بين أطراف غير متساويين، وهو أيضاً العلاقة بين الصغير والكبير، وبين الضعيف والقوي، وبين الفقير والثري. صراع أوكرانيا يُدار بأسلحة وأدوات غير متسقة بعضها مع بعض: سلاح المقاتلة والمدفعية مقابل سلاح الاقتصاد السياسي وفي مقدمته العقوبات التجارية وفرض العزلة المالية على المصارف الروسية وحرمانها من استخدام نظام سويفت للتحويلات المالية، وتضييق الخناق مالياً على عدد من الأثرياء والمقربين من بوتين. يتجسّد عدم التوازي أيضاً في تحوّر المعارك من قصف جوي واجتياح برّي إلى حرب عصابات أو حرب مدن مفتوحة. وأظهرت التقارير الواردة من أوكرانيا، كما يقول أندي كيسلر Andy Kessler في «وول ستريت جورنال»، قصص استخدام صواريخ جافلين Javelin المضادة للدبابات والمركبات الجوية التركية بايرقدار تي بي Bayraktar TB2 من دون طيار التي تردّ على الدبابات والعربات المدرّعة الروسية. وأعلنت حكومة بايدن تخصيص 800 مليون دولار من الأسلحة الدفاعية لأوكرانيا، بما فيها Javelin وStinger المضادّة للطائرات وطائرات Switchblade من دون طيار. وثمّة مفارقة مثيرة، حسب رأي أندي كيسلر، أن المقاومة التي يقوم بها الأوكرانيون لا تكلّف كثيراً، ولا يعني هذا أنه مجرّد استخدام زجاجات المولوتوف.

غير أنّ دراسة نشرها معهد الحرب الحديثة في كلية ويست بوينت الأميركية توصّلت إلى أنّ «حرب المدن غير متكافئة. ورغم ورود تقارير على نطاق واسع عن انقطاعات في سلسلة التوريد لما تحتاجه القوات، فإن لدى الروس أسلحة متفوقة مقارنة بالأوكرانيين، وجيشاً أكبر أيضاً (وإن كان من غير الواضح عدد الجنود الروس والأوكرانيين الذين يشاركون بنشاط في القتال الحالي). هذا ما يستميل معظم المحللين إلى استنتاج أنه من غير المرجّح أن يهزم الأوكرانيون الروس في ساحة المعركة. وستتكيف حرب المدن مع هذا التوزيع غير المتكافئ للأسلحة والأفراد، ما يجعلها احتلالاً مؤلماً بشدة لقوة الاحتلال ذاته. أمّا المساعد السابق لوزير الخارجية الأميركية لشؤون أوروبا ورئيس قسم دراسات الدبلوماسية والأمن في مؤسسة راند، جيمس دوبينز، فيلاحظ أن التجربة تُظهر أن حروب المدن يمكن أن تستمر عقوداً، وأن المساعدة الخارجية والملاذ المجاور غالباً ما يكونان حاسميْن لنجاح المتمرّدين، ومن المرجّح أن تكون حكومات دول حلف شمال الأطلسي على استعداد لاستضافة حكومة أوكرانية في المنفى إذا أصبح ذلك ضرورياً. ويضيف جيمس دوبينز أن حملات مكافحة التمرّد يمكن أن تكون طويلة جداً وتستهلك الكثير من القوى البشرية. ويذكر أن العقيدة العسكرية الأميركية، على سبيل المثال، تعتدّ بمعدّل 50 من عمليات التمرد بين كل ألف نسمة، وأن تهدئة الأوضاع في أوكرانيا بالكامل قد تستدعي قوّة تصل إلى 800 ألف جندي وشرطي. وهذا العدد هو خمسة أضعاف العدد الذي نشرته روسيا في الوقت الحالي. في ضوء ديناميات الحرب في أوكرانيا، وتعدّد الرؤى التحليلية بشأنها، يصبح خطاب الحرب الباردة غير مجدٍ في تفسير التنافس الراهن بين قطب شرقي يهندسه بوتين من خلال تحالف روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وأيضاً تركيب علاقات تعاون لا متناهية مع الصين. فقد نشرت وكالة ريا نوفوستي الروسية بالخطأ مقالة افتتاحية للمحلل الروسي يوتر أكوبوف في وصف المشروع الإمبراطوري الذي يتصوّره بوتين، قبل مسحه من الموقع في 26 فبراير/ شباط، وترجمته مؤسسة التجديد السياسي La Fondation pour l'innovation politique في باريس إلى الفرنسية بعنوان L'avènement de la Russie et du nouveau monde «صعود روسيا والعالم الجديد». يوضح أكوبوف كيف تجرى عملية الترويس الكامل، بمعنى إضفاء السمات الروسية على أوكرانيا وبيلاروسيا كنقطة انطلاق لإعادة تشكيل النظام العالمي، ويقول «هنا يبدأ البعد الثاني للعصر الجديد، ويتعلّق بعلاقات روسيا مع الغرب، ليس علاقات روسيا وإنّما العالم الرّوسي، أي علاقات الدول الثلاث: روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا، نحو التعاون ككيان جيوسياسي واحد».

بعد أسبوع من الاجتياح الروسي أوكرانيا، توقعتُ أن أرض أوكرانيا ستكون مجرّد وعاء مرحلي للمجابهة المفتوحة بين الكرملين والغرب، وأن من الممكن نشر وجود عسكري روسي على الحدود الأوكرانية البولندية، على غرار الحشد العسكري الذي ظل لأشهر على الحدود الروسية الأوكرانية. وتجسّد أحداث مولدافيا فرضية استراتيجية قد يطبقها الكرملين في أي منطقة أخرى توجد فيها أقلية روسية أو موالون لموسكو، ولو في أرض المرّيخ. وتنطوي الزيارات المتكرّرة للمسؤولين الأميركيين (بلينكن، وهاريس، وبايدن وزوجته جين وخبراء البنتاغون) على مدى التهديد القائم لدولة سوفييتية التاريخ أوروبية الحاضر وغربية المستقبل. وهذا يعزّز استشرافاً آخر، أنه طالما لم يستجب الغرب لمطالب بوتين، فإن الأخير سيواصل سياسة التدخل المتدرّج باسم الدفاع عن الأقليات الموالية لموسكو، بداية بأوكرانيا ومولدافيا، ولاحقاً بولندا ورومانيا ودول البلطيق الثلاث وبقية الجمهوريات السوفييتية السابقة.

(أستاذ جامعي مغربي في الولايات المتحدة)

صراع غير متواز

الحرب الروسية على أوكرانيا صراع غير متواز على أكثر من مستوى. وينطوي عدم التوازي على بنية توجد في جل العلاقات السياسية والاجتماعية بين أطراف غير متساوين، وهو أيضا العلاقة بين الصغير والكبير، وبين الضعيف والقوي، وبين الفقير والثري. كما انه صراع يدار بأسلحة وأدوات غير متسقة مع بعضها بعضا: سلاح المقاتلة والمدفعية مقابل سلاح الاقتصاد السياسي وفي مقدمته العقوبات التجارية وفرض العزلة المالية على المصارف الروسية وحرمانها من استخدام نظام سويفت للتحويلات المالية.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني